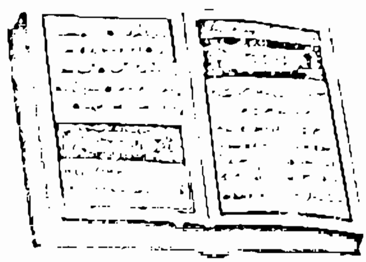
تفسير سورة الانشراح



بقلم : الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي انقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب .

اللغة

ألم نشرح : الشرح في اللغة الكشف . يقال شرح فلان أمره أي أوضحه. وشرح مسألة مشكلة بيّنها . وشرح الشيء يشرحه شرحاً وشرحه فتحه وبينه . وشرح الله صدره لقبول الخير وسعه لقبول الحق فاتسع (١) . وشرح الصدر كما قال الراغب في مفرداته : بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منه (٢) .

---

(١) انظر لسان العرب جـ ٣ ص ٣٢٨ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٢٥٨ .

وضعنا عنك : حططنا ، من الوضع الذي يطلق في اللغة على معان منها الخلع والحط والإزالة . يقال وضع ثوبه ونحوه مما يلبس خلعه . ووضع الفارس السلاح ألقاه ووضع الله عنك همك وكربك أزاله ونفاه عنك (١) .

الوزر : الحمل الثقيل ويطلق على الذنب لثقله . وأوزار الحرب وغيرها الاثقال والآلات واحدها وزر . يقال وزر يزر إذا حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة ومن الذنوب (٢) .

والمعنى : حططنا عنك وأزلنا ما كنت تشعر به من أحمال اثقلت كاهلك .

أنقض ظهرك : أي أثقلة وأوهنه ، يقال في اللغة : أنقض الحمل ظهره إذا أثقله وجعلة ينقض من ثقله أي يصوت . والأصل فيه أن الظهر إذا اثقله الحمل سمع له نقيض أي صوت خفي (٣) . وأهل اللغة يقولون : أنقض الحمل ظهر الناقة إذا سمعت له صريراً من شدة الحمل (٤) .

العسر : الشدة والضيق .

اليسر : السعة والغنى .

فانصب : النصب التعب والمشقة وهو هنا عبارة عن الاجتهاد البالغ في الطاعة والالتزام الكامل بمنهج الاستقامة .

وإلى ربك فارغب : من الرغبة وتطلق في اللغة على الضراعة والمسألة كما تطلق على ارادة الشيء والحرص عليه والطمع فيه . يقال رغب يرغب إذا حرص على الشيء وطمع فيه . ورغب في الشيءأراده (٥). والمعنى:الجأ اليه في جميع أمورك وأخلص رغبتك اليه بحيث لا يكون لك هم سواه ولا مقصد الا نيل رضاه . .

---

(١) انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة جـ ٢ ص ٨٥٦ .

(٢) لسان العرب جـ ٧ ص ١٤٥ .

(٣) لسان العرب جـ ٩ ص ١١١ .

(٤) تفسير القرطبي جـ ٢٠ ص ١٠٦ .

(٥) انظر لسان العرب جـ ١ ص ٤٠٦ ــ ٤٠٧ .

صلة هذه السورة بما قبلها :

هذه السورة المكية شديدة الصلة بسورة الضحى . فكل منهـــا يتحدث عن مظاهر التكريم الالهي التي اختص الله بهـــا نبيه عليه الصلاة والسلام . حتى ذهب بعضهم إلى القول بـــأنها سورة واحدة . ولكن هذا القول خلاف للمتواتر من كونها سورتين ، وخلاف ما يؤذن به سياقها من اختلاف في حالة الرسول ﷺ عند استقبال كل منها مما يدل على استقلال كل منها ونزولهـــا في وقتين مختلفين . ذلك أن الذي يؤذن به سياق هذه السورة من ثبوت نعمة انشراح الصدر له عليه الصلاة والسلام عند نزولها غير ما يؤذن به سياق تلك من الضيق والمحنة التي كان يعاني منها صلوات الله عليه نتيجة ايذاء المشركين وتأخر الوحي عنه .

التفسير

نلاحظ أن السورة قد ابتدأت بهذا الاسلوب من الاستفهام الانكاري الذي يدل على أن ما يستفهم عنه هو في غـــاية من الثبوت والوضوح بحيث لا يمكن أن يتعرض من قبل الموجه اليه إلى أدنى شك أو ريبة حتى يجيب بالنفي أو يكون لديه تحفظ في الرد بالإيجاب ذلك أن المستنكر هنا والمستبعد إنمـــا هو نفي ثبوت الشرح لصدره الشريف صلوات الله وسلامه عليه . وهو يشعر أن ثبوت هذا الأمر للرسول ﷺ بحيث أنه لمس آثاره . وعاين حقيقته في نفسه ، ومن كان هذا شأنه لا يملك الا الاذعان للمنعم والاعتراف بالنعمة مع القيام بحق الشكر المترتب عليه .

وانشراح الصدر الـــذي جعل للرسول ﷺ اختلف في زمنه وفي كيفيته فقيل إنه حصل للرسول ﷺ في صباه حين شق صدره واستخرج منه حظ الشيطان وقيل إنه وقع له عليه الصلاة والسلام أيضاً عند مجيء جبريل عليه السلام بالوحي في غار حراء روى ذلك الطيالسي والحرث في مسنديهما وكذا أبو نعيم ولفظه : أن جبريل وميكائيل عليهما السلام شقا صدره وغسلاه ثم قال : اقرأ باسم ربك الآيات (١) .

وقيل إنه وقع له ليلة الأسراء والمعراج على ما أخرجه البخاري وغيره في الصحيح عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به وفيه

---

(١) تفسير الألوسي جـ ٣ ص ١٧ .

قال سمعته يقول : فشق مـــا بين هذه إلى هذه فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد .

فواضح ممـــا سبق أن الكيفية قد تمثلت في شق صـــدره الشريف من قبل الملائكة ثم معالجة قلبه وتطهيره وإفراغ ما أذن الله أن يفرغ فيه من الايمان والحكمة وأن هذا الأمر قد تم له قبل نزول هذه السورة بزمن .

ولكن الذي يمعن النظر في هذه السورة يجـــد أن هذا الذي فسر به انشراح الصدر لا يتناسب مع سياق الآيات ومدلول العبارات . ذلك أن هذه السورة قد نزلت بعد سورة الضحى . التي فيها عدة من الله بالعطاء الجزيل والأكرام الواسع الذي يرضي حبيبه ويثلج صدره ﷺ ، ثم جاءت العبارة التي يمتن الله بها على نبيه بنعمة الانشراح في هذه السورة ، بما يوحي أنها نعمة جليلة تحقق بهـــا وعد الله وأثلج بها قلب رسول الله . فالشرح المتحدث عنه في هذه السورة قد جاء منسوباً إلى الله دون واسطة معبراً عنه بالفعل المضارع المقرون بنون العظمة . وهذا يعني أن هذه النعمة على عظمها ورفعة شأنها لها صفة التجدد والاستمرار وانهامن الطاف الله الخفية وفيوضاته القدسية .

أما عن كيفية الانشراح هنا فقد ذكر الألوسي بأنه تأييد النفس بقوة قدسية وأنوار الهية بحيث تكون ميداناً لمواكب المعلومات وسمـــاء لكواكب الملكـــات وعرشاً لأنواع التجليات وفرشاً لسوائم الواردات (١) . وقال إنه الأنسب بمقـــام الامتنان . قال أبو السعود : والمعنى ألم نفسحه حتى حوى عالم الغيب والشهـــادة وجمع بين ملكتي الاستفادة والإفادة فما صدك الملابسة بالعلائق الجسمانية عن اقتباس أنوار الملكات الروحانية ، وما عاقك التعلق بمصـــالح الخلق عن الاستغراق في شؤون الحق (٢) .

وقيل المعنى : ألم نزل همك وغمك باطلاعك على حقائق الأمور وحقـــارة الدنيا فهان عليك احتمال المكاره في الدعاء إلى الله تعالى .

---

(١) تفسير الألوسي جـ ٣ ص ١٦٦ .
(٢) تفسير أبي السعود جـ ٥ ص ٢٨٠ .

« ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك »

ونعمة أخرى يمتن الله بهـا على نبيه عليـه وآله الصلاة والسلام تلك هي ازالةما كانيعانيه ﷺ منمتاعب وأثقال نتيجة حملهأعباء الرسالة وحرصهالشديدعلى اسلام قومه والأخذ بيد من أسلم إلى جادة الصراط ونتيجة ما كان يلاقيه من عنت وارهاق وصد عن سبيل الله من قبل الجاحدين والمعاندين وتصور لنا الآيات مبلغ ما عاني منه ﷺ نتيجة حرصه البالغ على الايمان حيث يقول جل شـأنه « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » (١) . ويأمره جل شأنه أن يخفف عنه مـا يرهق به نفسه في هـذا السبيل « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » (٢) .

أما بالنسبة لتحمله لهموم المسلمين وحرصه البالغ على مـا يصلحهم : فقوله تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » (٣) صريح الدلالة على ذلك ، كما أن قوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه مسلم عن أبي هريرة « انمـا مثلي ومثل أمتي كمثل رجـل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحمون فيه » وفي رواية « وأنتم تفلتون من يدي » فهو يصور لنا مدى المسؤولية التي انيطت بنبي الرحمة عليه الصلاة والسلام تجـاه أمته ، وهي مسؤلية يشيب من همومهـا الولدان . هذا وغيره مما عانى منه صلوات الله وسلامه عليه وأثقل كاهله قد تكرم الله ـ جل شأنه ـ بما خص نبيه من خفي الألطاف وما كشفه له من الحقائق وآتاه من اليقين بحطه عن كاهله وازالة آثاره من نفسه .

وليس الأمر على ما يزعمه بعض المفسرين من تفسير الوزر بالذنب مدعين أنه كان للنبي ﷺ ذنوب أثقلته « (٤) وندع هنا المجال لعالم اللغة ابن منظور صاحب لسان العرب للرد على هؤلاء إذ يقول رحمه الله بعد نقله عنهم هذا القول المزعوم .

---

(١) الكهف ٦ .

(٢) فاطر ٨ .

(٣) التوبه ١٢٨ .

(٤) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٠٥ .

هذا القول فيه تسمح في اللفظ واغلاظ في النطق ، ومن أين لسيدنا رسول الله ﷺ أوزار تتراكم على ظهره حتى تثقله أو يسمع لها نقيض وهو السيد المعصوم المنزه عن ذلك ﷺ ولو كان وحاشا لله أن يأتي بذنوب لم يكن يجد لها ثقلا فإن الله تعالى قد غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر،وإذا كان غفر له ماتأخر قبل وقوعه فإين ثقله كالشر إذا كفاه الله قبل وقوعه فلا صورة له ولا احساس به،ومن أين للمفسر لفظ المغفرة هنا وانما نص التلاوة ووضعنا ، وتفسير الوزر هنا بالحمل الثقيل وهو الأصل في اللغة اولى من تفسيره بما يخبر عنه بالمغفرة ولا ذكر لها في السورة . يحمل هذا على أنه عز وجل وضع عنه وزره الذي انقض ظهره من حمله هم قريش إذ لم يسلموا أو هم المنافقين إذ لم يخلصوا أو هم الايمـان إذ لم يعم عشيرته الأقربين أو هم العالم إذ لم يكونوا كلهم مؤمنين أو هم الفتح إذ لم يعجـل للمسلمين أو هموم أمنة المذنبين فهذه أوزاره التي أثقلت ظهره ﷺ رغبة في انتشار دعوته . وخشية على أمته ومحافظة على ظهور ملته وحرصاً على صفاء شرعته . . . وهل ما تقدم وما تأخر من ذنبه المغفور الاحسنات ، سواه من الابرار يراها حسنة وهو سيد المقربين يراها سيئة ، فالبر بها يتقرب والمقرب منها يتوب(١) .

(ورفعنا لك ذكرك)

ورفع ذكره صلوات الله وسلامه عليه عبارة عن التنويه بشأنه واظهار سمو رفعته وجلال قدره عند الله سبحانه وتعالى ، بما يشعر ذلك من لطيف الاشارات وكريم العبارات ومظاهر الحفاوة والتكريم المتنوعة : وهذا مـا تم له صلوات الله وسلامه عليه . فقد قرن جل شأنه اسمه باسمه فى كلمتي الشهادة وفى الأذان والاقامة . وجعل طـاعته طـاعته : وصلى عليه هو وملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه . وخاطبه بالألقاب الكريمة وذكره سبحانه في كتب الأولين . فيكون جل شـأنه قد رفع ذكره في الأولين والآخرين ونوه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به وأن يأمروا أممهم بالايمان به ثم شهر ذكره في أمته فلا يذكر الله الا ذكره معه . ثم يرفع الله ذكره في الآخرة بما يعطيه من المقام المحمود وكرائم الدرجات . وامتنان

---

(١) لسان العرب جـ ٩ ص ١١٢ .

الله عليه بهذه النعمة في وقت حرج يعاني فيه من اضطهاد قومه فيه عدة كريمة منه جل وعلا أن ينصره ويرفع شأنه ويذل أعداءه .

(فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا)

الناظر في هذا القول المتمعن فيه يجده يفيض بالألطاف الالهية ويكشف عن العناية الربانية التي أحاطها الله نبيه ومن آمن معه ، فضلا على ما يحمله من توضيح للمهمة التي أنيطت به وما يتضمنه من وعد كريم من الله سبحانه وتعالى أن يهون عليه كل عسير يلقاه وامته ويذلل أمامه كل الصعاب حتى يبلغ الرسالة ويؤدي الأمانة .

فالآية تلفت نظر الرسول ﷺ إلى ما سيواجهه في مستقبل الأيام من مشاق وشدائد تعترض سبيل الدعوة التي يحملها وأمته ، ثم تطمئنه إلى رحمة الله وعنايته وتأييده له وللمؤمنين بحيث تكون الغلبة لهم والعاقبة الحسنى سبيلهم .

وفعلا قد واجهته صلوات الله وسلامه عليه شدائد كثيرة هو وجماعته قبل الهجرة وبعدها ، حين تآمرت عليهم الأعداء ، وحاولوا القضاء عليهم واستئصالهم، ولكن الله ردهم على أعقابهم خاسرين ، وأيد رسوله والمؤمنين حتى أصبحوا على عدوهم ظاهرين .

(فإذا فرغت فانصب والى ربك فارغب)

ثم نجد الآيات بعد ذلك تتوجه الى الرسول ﷺ بهذا الخطاب الكريم ، فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب) آمرة له إذا ما فرغ من تبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة أن يجهد نفسه طاعة في مولاه قياماً بواجب الشكر على ما أسداه إليه من النعم الظاهرة والباطنة .

وما أروعها من نعمة ، وأسعدها خاتمة أن يقبل المرء على مولاه ، وينقطع عما عداه ، ولا يكون له هم سواه ، بعد أن يفرغ من أداء رسالته في هذه الحياة .